ولكلّ حزر[788] تبرير، ولكلّ ظنٍّ مساق. أمّا الزهراء فكانت تتطلّع إلى لقاء أبيها بمأمنه بفؤاد شوق، لعلّ شوقه يفوق ما قد اعتلج بفؤاد أُم موسى بعد أن وضعت وليدها في التابوت وألقت به في النيل، خوفاً عليه من فرعون الذي كان يذبح الأبناء ويستحيي النساء ... فلقد أوحى إليها ربّك (أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ)[789]. لكن شوق السيدة شوق لهيف، فهي وإن أمنت على ولدها الوبال، لا تعرف أيرفق به أم يقسو التيار، ولا أيّان مرساه، ولا كيف ستلقاه. وهو شوق واحد: شوق أُمٍّ تعرف أنّها حرمت ابنها حتّى حين، لعلّه يقصر ولعلّه يطول. أمّا شوق فاطمة فشوقان: إنّه شوق ابنة إلى أب، وشوق أُمّ إلى ابن، في نفس الآن! ألم تر أنّها ما فتئت ـ منذ انتبهت على الدنيا ـ ترعاه رعاية والدة لوليد، بكلّ ما يزخر بقلبها من عواطف الأُمومة المبكّرة، وما لم يطف مثله بقلوب غيرها من الأُمهات؟ * * * وفرغت من شأنها الفتاة، وفرغ من شأنهم من معها بالدار، وردّ علي لأصحاب الأمانات ما كانوا قد استودعوا رسول ا وهو بينهم مقيم. فالعجب لقوم ائتمنوه ـ دون غيره من كبارهم وسادتهم ومشيخة ملّتهم ـ على الثمين والنفيس من عروضهم، إذ عرفوه أمين اليد، أمين العهد، أمين الرأي، ثم إذا هم يزورّون[790] عنه استكباراً حين يبلّغهم كلمات ا!